بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: ١٠٤ **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ: ٢٦/ ٢٠٢٤/١١م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

ما زال الكلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

بقي لدينا أن نقف عند هذه المشيئة ﴿فَمَنْ شاءَ﴾ ما هو المقصود منها؟ وما هو فرق هذه المشيئة عن المشيئة الواردة في الآية التي قبلها حيث قال: ﴿إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلا﴾؟

واضح أن المشيئة السابقة مسندة إلى الباري تبارك وتعالى، وهذه المشيئة مسندة إلى الإنسان. وهذا فرق واضح، وهو ليس هو محل بحثنا. وإنما في أصل المشيئة هل يوجد بينهما فرق؟

هذه المشيئة المذكورة في هذه الآية لابد من الوقوف عندها:

بالنسبة للإنسان يوجد -إن صح التعبير- أفعال وأنساب، وتمتاز الأنساب عن الأفعال بأنه ليس للإنسان في الأنساب أي دخالة، بينما الأفعال للإنسان فيها كسب ودخالة، ففي سورة الحجرات جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

فالذكر والأنثى أنساب، وهذه القبيلة مع الأخرى أنساب، وليس باختيار الإنسان. أما التعارف فهي أفعال، ولأجل ذلك رتب عليها التفاضل، فالتقوى من الأفعال وليست من الأنساب. فما كان من الأنساب ليس للإنسان فيه مشيئة، وما كان من الأفعال للإنسان فيه مشيئة.

فهذا يعني أن القرآن الكريم أثبت لنا في الأفعال كسباً ومشيئة.

وما نحن فيه في هذه الآية المباركة من قبيل الأفعال بلا إشكال، فإن الهداية -﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ نوع من الهدية- من الأفعال التي أثبت القرآن الكريم لنا فيها كسباً، وهذه مشيئة تستبطن معنى الحث والترغيب بعد ارتباطها بما جاء في صدر السورة، حيث ذكر في صدر السورة بعد أن بيّن أنه قد خلق الإنسان من نطفة أمشاج وهذا من الأنساب، وجعله مورداً للامتحان والابتلاء بأمور هي

[1] الحجرات: ١٣

من الأفعال، لا يبتليه ولا يمتحنه بشيء هو خارج عن قدرته، وأودع في هذا المخلوق وسائل المعرفة والهداية فجعله سميعاً بصيراً، وهداه النجدين، وبيّن له طريق الحق من الصواب، ثم بيّن له عمل الذين اختاروا طريق الخير وبيّن له ثوابهم، وبيّن عمل الذين اختاروا طريق الشرّ وبيّن له عقابهم.

فعندما تقول هذه الآية ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ أي أيها الإنسان نحثك على أن تسلك هذا الطريق، وإن كان هو بمشيتك.

أما في الآية السابقة فالمشيئة هي مشيئة قدرة، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى عندما بين في الآية السابقة بأنه أيها الناس الذين تحبون العاجلة وتذرون وراءكم يوماً ثقيلاً من الذي خلقكم؟ نحن خلقناكم، نحن الذين أوجدناكم في هذه الدنيا فينبغي أن تلتفتوا فلنا قدرة على الذهاب بكم وعلى أن نستبدلكم بغيركم. فهذه المشيئة في هذه الآية ﴿إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْديلا﴾ هي مشيئة اقتدار ومشيئة قدرة، أي نحن قادرون على أن نبدل أمثالكم تبديلاً.

أما المشيئة في الآية اللاحقة هي مشيئة كسب، فأيها الإنسان عندك اختيار في أن تسلك هذا الطريق بعد أن بيّنا لك ما بيّنّا.

وبهذا يتم الكلام هذه الآية المباركة.

الآية الثلاثون: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾.

بتعبير الفخر الرازي: "هذه الآية والآية التي قبلها تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر" فالجبري يستدل بها والقدري يستدل بها. ومن العجيب أن ترى في بعض الكتب خصوصاً عند متكلمي العامة وبالأخص في الكتب الحديثة عندما يريدون أن يضربوا أمثلة على القدرية يذكرون الشيعة الاثنى عشرية، والحال أن كتبنا طافحة لما يبرهن على بطلان ذلك.

القدري الذي يقول بالاختيار الكامل، وأن الله سبحانه وتعالى ليس له علاقة بأفعال الإنسان. يتمسك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ ويعتبر أن هذا صريح مذهبه، ومن هذا من قبيل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر﴾[٢] الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وتنحى جانباً.

---

[٢] الكهف: ٢٩

والجبري يقول بعدم قصر النظر على هذه الآية، بل يمتد النظر لما بعدها، فإذا ضممناها إلى الآية التي بعدها يستنتج منها صريح مذهب الجبري؛ لأن قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ معناه أن مشيئة العبد إذا كانت خالصة تستلزم الفعل، وعندما جاءت الآية التي بعدها قوله تعالى: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ فهي الصريحة في أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد.

وثبت في الآية السابقة أن مشيئة العبد مستلزمة للفعل، فنطبّق عليه القانون مستلزم المستلزم مستلزم، فيصبح المستلزم للفعل هو مشيئة الله.

فيقول لو كنا نحن والآية الأولى الحق مع القدرية، فلا ربط للخالق تبارك وتعالى بأفعال العباد، لكن عندما جاءت الآية الثانية تغير الأمر، الآية الأولى تقول الفعل يستلزم مشيئة العبد، والآية الثانية تقول مشيئة العبد يستلزمها مشيئة الخالق تبارك وتعالى. فإذاً الذي يستلزم الفعل خارجاً هي مشيئة الخالق لا غير، والعبد آلة.

هنا تلاطمت أمواج القدرية والجبرية في هاتين الآيتين.

البحث عن نظرية لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين هذا موكول إلى محله في علم الكلام.

لكن بشكل مختصر: المتتبع في آيات القرآن الكريم يصل إلى نتيجة قاطعة مفادها أن أفعال الشرّ والتي نسميها في الشريعة بالمعاصي، وأفعال الخير والتي نسميها في الشريعة بالطاعة، هذه تنتهي إلى غواية الإنسان وسوء سريرته وحسن سريرته، وغواية الإنسان تنتهي إلى الإنسان ذاته، ولا تنافي بين هذه الحقيقة وبين هذه الآية المباركة ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ والتي لها نظير في القرآن الكريم في سورة التكوير: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾[٣].

الذي يتوقف على مشيئة الله ليس هو متعلق مشيئة العبد، بل الذي يتوقف على مشيئة الله هو مشيئة العبد، فهناك فرق القول فعلي يتوقف على مشيئة الله، وفعلي يعني متعلق المشيئة مثل إقامة الصلاة أو شرب الخمر، فالذي يتوقف على تبارك وتعالى هو مشيئتي لا متعلق مشيئتي.

---

[٣] التكوير: ٢٧ ـ ٢٩

الباري تبارك وتعالى إذا نظر إلى حسن سريرة العبد وشاء العبد يشاء الله، وإذا نظر إلى سوء سريرته وشاء العبد أن يعمل على وفق سريرته السيئة يشاء الله تبارك وتعالى، وهذا واضح في آيات متعددة، مثلاً يقول: ﴿وَيَهْدي إِلَيْهِ مَنْ أَناب﴾[٤] فأناب أي مَنْ جنح ورجع ومال وعطف، أما الفاسق الذي أخلد في الأرض وانعطف نحو الضلال والغواية لا يشاء الله سبحانه وتعالى هدايته ولا يغشاه برحمته، لذا قال في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهْدي بِهِ كَثيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقين﴾[٥] وفي سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقينَ﴾[٦] وفي سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواه﴾[٧] فلما أخلد في الأرض واتبع هواه فلم تتعلق مشيئة الله سبحانه وتعالى بأن يرفعه وبأن يرفع شأنه، بل تعلقت مشيئة الله سبحانه وتعالى بما تعلقت بنفس مشيئة العبد.

خلاصة الأمر: ما يفهم من آيات متعددة من كتاب الله سبحانه وتعالى أن العقوبة والمثوبة على فعل ينشأ عن اختيار العبد، لا على فعل يكون مقهوراً عليه. لكن هذا الفعل الذي ينشأ من العبد باختياره ففي النهاية وراء كل موجود الله تبارك وتعالى، كان يمكن للباري تبارك وتعالى أن يمنع صاحب سوء السريرة عن شرب الخمر، وأعطاه أدوات تمكنه من شرب الخمر، لكن مشيئة الباري تبارك وتعالى تتعلق بمشيئة العبد؛ فلأنه أخلد في الأرض لم يرفعه وأبقاه على ما هو عليه؛ ولأنهم من الفاسقين لم يختاروا انتشالهم من بؤرة الفساد، ولكن وقادر على ذلك.

لكن باعتبار أن نظام الثواب والعقاب يقتضي أن تصدر الأفعال عن اختيار من العبيد تركهم واختيارهم. فهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾.

---

[٤] الرعد: ٢٧
[٥] البقرة: ٢٦
[٦] الصف: ٥
[٧] الأعراف: ١٧٦